تأهيل المترجم العربي بين الواقع والمأمول

شعيب مڤنونيف
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان - الجزائر -
meg_chaib@yahoo.fr

ملخص:

إن مشكلة الترجمة ومشكلة تدريسها ونوعية أساتذتها واجتهاد طلابها وركود سوقها عند العرب وتخلّف متخرّجيها عن الالتحاق بالسوق الدولية، كل ذلك مسألة متداخلة بعضها ببعض إذ يستحيل اختزالها في سبب واحد. والدعوة هنا هي دعوة تفعيل دور الأفراد والمؤسسات للنهوض بواقع الترجمة إذا أردنا أن نكون في مستوى التحدي العالمي. لأن الترجمة هي قاطرة التقدم، ولا يمكن الحديث عن تقدم دون وجود ترجمة. وازدهار الترجمة مرتبط بازدهار الثقافة العربية، ذلك أن الثقافة العربية تمر في أزمة خطيرة، وتعاني من مشكلات تهدد مستقبل هذه الثقافة، وقد انحدر بسبب ذلك حالها وثم فلا نهضة لترجمة دون نهضة للثقافة وسعيٍ جمعيٍ إلى تقديرها وتقدير أصحابها.

كلمات مفتاحية: تأهيل؛ المترجم العربي؛ ثقافة؛ فكر؛ سياسة لغوية؛ مهنة الترجمة.

تمهيد: حول منزلة ودور الترجمة في التواصل الحضاري والثقافي بين الشعوب

أولا- قيمة الترجمة في التواصل الحضاري والثقافي واللغوي

غير خاف أن الترجمة من أعظم الأدوات التي تنحت المحتوى الفكري، وتشكل الصياغة العقلية. ومن ثم فإن دورها في تكوين

الحضارات والثقافات يتعاظم يوماً بعد يوم، إذ هي الجسر الذي تخطو فوقه لغة الحوار بين الأمم فتختصر المسافات بين الدول. وما من أمة استطاعت أن تنشر فكرها وحضارتها بلغات من حولها من أمم أخرى إلا نجد لها الغلبة الفكرية والحضارية، وما من أمة تقوقعت أفكارها داخل بوتقة لغتها الأحادية إلا نجد مكانها فارغاً على خارطة التاريخ ولا يصلنا من خبرها إلا النّادر القليل[1]. لذا عُدَّتّ الترجمة بمثابة السفينة التي تمخر عباب المحيطات لتنقل بضاعتها من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى، لتتبادلها بين الأقطار والحضارات، فالترجمة هي الموصل الحقيقي للثقافات، وهي الوحيدة القادرة على إجراء حوار موضوعي بين تلك الثقافات عندما ترسو على شطآن مختلف الأمم والشعوب حيث تتلاقح الأفكار والأحداث وتتلاقى على المستوى العالمي[2]. ولكي تؤتي سفينة الترجمة أكلها وتحقق جدواها فكرياً وثقافياً، فإن الأمر يتطلب الإجادة التامة للغات ودقّة النقل والتعبير، وهذا لعمري أمر تقع مسئوليته على عاتق ربّان هذه السفينة، وهم بطبيعة الحال المترجمون الذين ينبغي لهم أن يعملوا على الترويج لبضاعتهم بكل الوسائل وخاصة بإجادتهم للغة الأصل ولغة الأم إجادة تامة، والابتعاد ما أمكنهم عن اللغة الوسيطة، والتحلي بحاسّة الترجمة التي وإن كانت فطرة جُبِلوا عليها، فإنّها لا تتطور ولا "تنهض إلا بالمران والخبرة والتدريب، والتوجيه السليم، ومراعاة المعايير والأصول المتبعة، والإلمام بكل المستجدات في مجالات المصطلحات والتعاريف، وتحرّي الوسائل الحديثة التي قد تعينهم على تحقيق أغراض الترجمة الأصيلة، وهذا كله يمكن تلخيصه في عبارة واحدة هي: أمانة النقل"[3]. وبهذا تتاح الفرصة أمام مختلف الثقافات لكي تتفاعل وتتقارب وتتفاهم بشوق وتشوق، وتلك مهمة بالغة الأهمية والحساسية، ولا يفي بأغراضها إلا من كان على درجة عالية من ثقافة الترجمة التي تقوم على التفاني والإبداع، وعلى حسن الذوق والتذوق[4].

وصفوة القول هو أن سفينة الترجمة هي في الواقع سفينة العلم، وهذا الاستنتاج هو الذي دفع سلفنا الصالح إلى الاهتمام بترجمة المؤلفات التي كتبت باللغات السريانية واليونانية والهندية والفارسية لكي ينهلوا من علوم الآخرين ويطوروها بما حباهم به الله من علم وفطنة بحيث أصبحت مؤلفاتهم العربية منهلاً علمياً لا ينضب ومرجعاً أساسياً دام عدة قرون[5]. والوطن العربي، وفي زمن العولمة، في أشدّ الحاجة إلى سفينة الترجمة حتى لا تعصف به رياح التخلّف، فهي الوحيدة التي يمكن أن تسير بنا إلى الأمام، وهي أيضاً القادرة على تغيير المفاهيم، واختراق الموانع والحواجز، وإصلاح ما يروج له المغرضون من تنافر وتناحر وتصادم بين الحضارات والديانات، وإيجاد السبل المجدية للتواصل والتحاور والتفاهم، زيادة فرص التعارف والتآلف والمحبّة بين الناس جميعاً، ولكن الملاحظ هو أن هذه السفينة تمشي الهوينا في عالمنا العربي ببطء شديد، وهي تتعثر في مسارها لحاجتها إلى المزيد من الوقود والقيادة الحكيمة. **ومن ثم جاز لنا أن نتساءل عن إمكانية حدوث الترجمة من عدمها؟** لقد أصبح من بدائه القول إن مرور عقود عديدة على ظهور أولى الدراسات اللّسانية الحديثة والمعاصرة قد أبرز أهمية النظر في اللغة وتحليل أنظمتها وما يرتبط بها من المعارف والعلوم حتى إن اللّسانيات أصبحت عمدة أساسة من عمد البحث والدراسة[6]. ولم تسلم اللّسانيات من التفرقة بين مظهريها النظري والتطبيقي. فقد اهتمت اللّسانيات التطبيقية بإحياء علوم عديدة ودفعت إلى إعادة النظر في بعضها أو إعادة تقويم البعض الآخر وأدخلت صياغة جديدة على طرق بحث القضايا اللّغوية القديمة بأن جعلتها أكثر تنظيما **(systématisation)** وأكثر شمولا ودقّة، وهي في كل ذلك تسعى إلى أن تستفيد من نتائج البحث اللّساني النظري بمختلف فروعه من ناحية أولى وإلى أن تؤكد استقلالها وتثبت ذاتيتها وتفردها في مناهجها وعدم خلوها من التنظير من ناحية ثانية[7].

والترجمة واحدة من هذه الظواهر اللّغوية التي تشملها عناية اللّسانيات التطبيقية الحديثة. وهي مهما تعددت تعريفاتها، لا تخرج إجمالا عن كونها "عملية تواصل" تحصل بتحويل علامات لغة إلى علامات لغة ثانية فهي تعني كل شكل من أشكال التوسط بين طرفين، أو أكثر. يستعمل كل واحد منها لغة تختلف عن لغة الطرف الآخر فهي قناة وجسر في عملية التواصل بين مجموعتين لغويتين مختلفتين سواء كان التواصل تخاطبا أم تراسلا، تجارة ومعاملات، حربا أم سلما... وهي أداة لابدّ منها عند كل لقاء أو تماس بين أفراد مجموعتين لغويتين أو أكثر. ولذلك لا نستبعد أن أولى الترجمات كانت "فورية" شفوية مباشرة، لما ثبت لدى الجميع من أسبقية المشافهة ومن "ثانوية" الكتابة[8]، وتأخرها في الزمن وفي مدى اللّجوء إليها وشيوع استعمالها ولئن وجدت نصوص مصرية قديمة محررة بلغتين تعود إلى آلاف السنين ولئن كان المترجمون في قصور الفراعنة يحظون بمكانة رفيعة ويحملون لقب الأمير ويتوارثون شرف المهنة توارث غيرهم شرف الانتماء إلى النبلاء والفراعنة الحاكمين[9]، فإن ذلك لا يشكل إلا مرحلة معلومة سبقتها مراحل لا نعرف عنها شيئا ولا نأمل في التعرف إليها كما لا نأمل أن نعرف حالة عديد اللّغات في مراحل سبقت مراحل تدوينها في وثائق باقية، كما أنه لا شك في أن مترجمي الفراعنة كانوا يقومون بالترجمة الفورية الشفاهية وبالترجمة التحريرية في الوقت نفسه مع غلبة النوع الأوّل على الثاني.

ولئن تعددت الترجمات من هذه اللّغة إلى تلك وتكاثرت عبر العصور فإن التنظير لقضايا الترجمة وما يحيط بها كان محدودا نادرا وظلّ يدور حول السّؤال التقليدي هل الترجمة ممكنة أم مستحيلة ؟[10].

ومن نافلة القول إن العرب قد أسهموا بقسط وافر في تقدم العلوم بما قاموا به من الترجمات في عصور ازدهار الحضارة العربية

الإسلامية ولكن تنظيرهم لفعل الترجمة **(l'activité traduisante)** أو المقارنة بين لغتهم وبين غيرها من لغات الأقوام الأخرى ظلت مقصورة على إشارات متفرقة وخاطفة عند هذا المؤلّف أو ذاك في معرض حديثه عن هذا الموضوع أو غيره، ولم نجد ضمن هذه الإشارات حديثا عن الترجمة تحريرية كانت أم شفوية. على أننا نستثني الجاحظ الذي تميز في هذا الشأن تميزا واضحا عن غيره من الكتّاب إذ عرض للّغة عرضا عميقا طريفا يدل على مدى تنبهه لخصائص الظاهرة اللّغوية، ولعل السبب في أنه من القلائل الذين أثاروا قضايا الترجمة إثارة مباشرة أو غير مباشرة يعود إلى أنه كان بلاغيا متأدبّا ولم يكن نحويا مقعدا وإلى أنه كان يلحظ اللّغة في الاستعمال والإنجاز فكانت "المشافهة" أو اللّفظ السّمة الأساسية لِمَا دُوِّن وكان "اعتماد التواصل بين طرفي الخطاب ... وبلوغ القصد من القول بضرب من التلقي المباشر... والاستهلاك على عين المكان"[11]، مرتكزة فيما لاحظ. يقول الأستاذ حمادي صمود: "انتبه الجاحظ إلى أن الفعل اللّغوي، مهما كان الحيّز الذي يتنزّل فيه، وبقطع النظر عن مقاصد منجزه وغاياته. يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية تمثل الحدّ الأدنى للبيان اللّغوي وهي المتكلم والسامع والكلام، ولئن لم نقف في مؤلفاته على صياغة نظرية مباشرة لهذا الاعتبار كما هو الشأن عند أرسطو مثلا. فإن كل تحليلاته اللّغوية ومقاييسه البلاغية ترتكز على ما بين هذه العناصر من تلاحم وتفاعل".[12]

ثانيا- الترجمة حتمية وضرورة من ضرورات العصر:

الترجمة هي خطاب ولغة الغد لأنها اللسان العالمي، اللسان الناطق بين أي لسانين ليس بينهما رابط، أو الوسيط بين من ليس بينهم لسان مشترك. وقد استطاعت الأمم والشعوب، بفضل هذه اللغة، أن تتبادل الأخذ والعطاء منذ أقدم العصور، مثرية بعضها بعضا، ومستفيدة

من ذلك أشد ما تكون الاستفادة. فلولا ترجمة الآداب لما عَبَرَت الإلياذة وألف ليلة وليلة الأزمنة والأمكنة، ولما استلهم دانتي وميلتون والمعري، ولما استمتع الناس بما أبدعته أقلام سيرفانتس وتولستوي وبلزاك وهمنغواي وماركيز ونجيب محفوظ[13]. ولولا ترجمة العلوم منذ قرون لما انتقلت معارف اليونان وبلاد فارس والهند إلى بغداد، ولما ارتحلت بعد ذلك إلى باليرمو وطليطلة بالأخص، ثم منها إلى باقي ربوع أوروبا، ومنها، أخيرا، إلى أرجاء العالم كافة. ولولا ممارسة الترجمة الفورية لما عُقدت آلاف المؤتمرات والاجتماعات الدولية والإقليمية، ولما أبرمت أعداد لا تحصى من العقود والاتفاقات... ولولا كل ذلك لما اطّلع الناس على أساليب معيشة شعوب وأمم مختلفة عنهم، ولَما نشأت ألوان من التفاهم والألفة والحوار والتفاهم بين الثقافات، حتى وإن كانت الترجمة تستغل أيضا في سرقة أفكار الغير، والاعتداء على الآخرين، وشن الحروب، وارتكاب المظالم. وعليه أيمكننا أن نتصور عالما بدون ترجمة!؟ افتراض مستحيل؟

إذن الترجمة قناة مليئة بالمعلومات والمعارف التي تنتقل عبرها فتقرب، أحيانا، بين مَن يُرسلها ومَن يَتَلقاها بفضل التفاهم الناشئ عن اكتشاف الآخر وقَبُول اختلافه. وهذا التفاهم شرط أساسي من شروط السلام. وبالترجمة يتّم التأثير والتأثر، ومن دونها ينقطع حبل التواصل[14]، فهي ستبقى خط الدفاع الأخير، **وإذا قيل مَن لا يتواصل مع الآخر محكوم عليه بالاندثار، فإنّ مَن لا يُترجم يُكتسح ويتبدّد.**

حول معيقات الترجمة في الوطن العربي الواقع والأسباب

لقد اتّضح من استقراء تاريخ الحضارات أن الترجمة ضرورة من ضرورات حياة الأمة وذلك لتحقيق التواصل الفكري. والترجمة

للعرب، تمثل مفتاحا أساسيا للحاق بركب التقدّم العلمي والتكنولوجي، ثم مواكبته، ضمن العولمة الثقافية والعلمية والاقتصادية...

إن من بين **الأسباب التي تؤدي إلى تأخر** الترجمة "الوقوع في أسر المركزية الأوروبية والأميركية، إذ أننا نتصور أن العالم هو في هاتين الدولتين وقد أدّى ذلك إلى تجاهل ثقافات العالم المختلفة، ثقافات القارة الآسيوية، والإفريقية، وأميركا اللاتينية"[15]، كما أن تسعين بالمائة (90 %) من "الترجمات التي لدينا هي عن اللغات الخاصة بالمركز الأوروبي والأميركي"[16]. وعلاوة على ذلك فإن العشوائية والتشرذم وغياب التخطيط، من أبرز الأسباب التي حالت دون ارتقاء الترجمة للمستوى الدولي، حيث لا يوجد "لدينا خطّة تشمل الأقطار العربية، لذلك حركة الترجمة على المستوى القومي والقُطري تعاني من غياب التخطيط، بدليل أن كتاباً معيناً قد تجده مترجماً أكثر من مرّة في أكثر من بلد عربي" [17].

ولعله من أسباب تدني مستوى الترجمة عندنا كونها تعتمد عن اللغة الوسيطة فنحن "لا نترجم عن اللغات الأصلية، بل عن لغات وسيطة، وكلنا نعرف أن هذه اللغات ليست دقيقة في الترجمة"[18].

ومن معوقات تقدم الفعل الترجمي "عدم الأمانة، وغلبة الطابع التجاري، إضافة إلى ما يسمى الموضة كأن تزدهر ترجمة مجال معين من مجالات الثقافة، وتقلص هوامش الحرية، وهذا من أهم العوائق، إذ تجد أن المترجم العربي يعاني من ضيق مساحات الحرية، فثمة مجالات لا يجرؤ المترجم على ترجمتها... كذلك عدم الاهتمام بإعداد وتدريب المترجمين، فعلى المترجم أن يعرف تيارات ونظريات الترجمة المختلفة، والانقطاع وعدم الاستمرار، ويبدو هذه خاصية عربية دون نزاع، فلا تستمر عمليات الترجمة على المدى الطويل" [19].

ولما كان أداء المترجمين العرب والجزائريين، على السواء، متواضعا، إن لم نقل فاشلا في سوق الترجمة الدولية، وجب البحث عن أسباب ذلك، والتساؤل على من يقع اللوم في ذلك؟ ومن هو المسؤول الرسمي؛ أ الأُستاذ في الجامعة والمدارس والمعاهد المتخصصة أم الطالب؟ أم السوق ومتطلباتها؟ أم التكوين والتأهيل؟؟

وحتى نجيب على هذه التساؤلات لا بدّ من الإشارة إلى ما يلي:

أولا- هموم الترجمة إلى العربية وتدني مستواها

تردت مهنة الترجمة إلى أدنى مستوياتها في العالم العربي وهذا يفسر ضعف بل شبه انعدام حركة الترجمة من العربية وإليها. وممّا لوحظ في بعض المدن العربية، مثل دمشق والقاهرة والرباط وطنجة وغيرها أن بعض المحلات التجارية تعلن عن خدماتها كالتالي: استقدام خادمات - تصليح أحذية- تصليح مفاتيح- ترجمة.

واللغة مرآة المجتمع كما قيل؛ فيها نرى أنفسنا وصورتنا، وللأسف في الوقت الراهن فهي مشوهة ولا شك، ولكن لا نديم الأسف لذلك ما دمنا نتجاوز مرحلة التشخيص وسرد واقع تفاقمت مرارته.

والحال هذه فإن للترجمة من لغات الشعوب الأخرى وثقافاتها إلى اللغة العربية هموم عديدة، لعل **أبرزها الافتقار إلى الاحترافية**، وإلى **إستراتيجية ثقافية لانتقاء ما يترجم**. ولذلك إذا ظلّت الترجمة عملاً فردياً ومشروعاً فردياً سيبقى القارئ تحت رحمة أهواء ورغبات وميول المترجمين، ومن هنا لابد أن يكون هناك مشروع قومي للترجمة في داخل القطر العربي الواحد، وعلى مستوى العالم العربي، ففي مصر، على سبيل المثال، الهيئة المصرية العامة للكتاب تُترجم المشروع القومي للترجمة التابع للمجلس الأعلى للثقافة، والهيئة العامّة

لقصور الثقافة تُترجم، وأكاديمية الفنون تُترجم، وللعلم أن هذه الجهات الأربع تابعة لوزارة الثقافة المصرية ومع ذلك لا يوجد بينها خطة للترجمة. وما قيل عن مصر يقال عن المغرب ودول الخليج وهلّم.

وحتى تستقيم هذه الاحترافية علينا أن نسأل عن:

أولا - لماذا يجب أن نترجم؟

ثانيا- ماذا ينبغي أن نترجم؟

ثالثا- لمن يتعين أن نترجم؟

رابعا- مَن يترجم؟

خامسا- كم نترجم؟

سادسا- كيف نترجم؟

نظن أن الإجابة عن هذه التساؤلات كفيل بتحقيق أسمى غايات الترجمة، ألا وهي تمكين المعرفة بغرسها في تربتنا اللغوية والذهنية والثقافية.

إذن الترجمة والمترجم في الوطن العربي لا يمكنهما الانسلاخ عن محيطهما المتدنيين على أكثر من مستوى. والمسؤولية تقع على عاتق مَن يمتهن الترجمة لكنها مسؤولية محدودة إذ لا يجب أن ننسى ما يفرضه الواقع المعيش وسوق العمل[20].

وفي تقديرنا، يبقى تقرير التنمية ومشاريعها في الوطن العربي للسنوات الماضية خير دليل على هذا الواقع وفيه من التشخيص ما يكفي للنقاش طويلا إن أردنا اعتماد نهج علمي وعملي لذلك.

ومع ذلك، لا ننكر إرهاصات حركة ترجمة في الوطن العربي. ولا أدّل على ذلك من تعدّد المؤتمرات واللقاءات الخاصة بالترجمة، وملتقانا هذا في طبعته التاسعة، أدام الله عمره وعمر الساهرين عليه، واحد منها، ضف إلى ذلك عدد الكتب والدراسات والمقالات التي تتناول الترجمة وازدياد عدد الجمعيات والهيئات المعنية بالترجمة في الآونة الأخيرة. ولكن يبقى العمل الدؤوب وحده هو الكفيل بتحسيس الرأي العام العربي وأصحاب القرار بضرورة الاعتماد على الترجمة وسيلة للتنمية وأداة لإثبات الذات والهوية[21].

ونعتقد أنّ لمَّ شمل المترجمين واللغوين العرب والمشتغلين بالعربية في جمعيات ومواقع محترفة ومحترمة، والتعاون المستمر بين تلك الجمعيات والمواقع المحترمة، هو الخطوة الأولى في هذه الطريق الطويلة المحفوف بالمخاطر والمزالق.

ثانيا- المأمول في تأهيل المترجمين في الوطن العربي

نحاول الآن، مساءلة الفعل الترجمي المنصب على الإنتاج الفكري، هل هو في زمن العولمة هذا، حيث انصهار الحدود وزوالها، يتّجه ضمن تحقيق الإنتاج الذي غدا شرطا حتميا ووجوديا للاستمرار والحيوية؟ أم أنّ هذا الانفتاح أصبح الآن يتطلب آلية تتجاوز الترجمة إلى آلية عولمة اللغة.

وبمعنى آخر لماذا هذا الفعل الترجمي وحركيته؟ وما هي دوافعه وتداعياته؟ أ هو لكسب المعرفة أم للهيمنة وقيادة العالم؟ أ هو جسر عبور إلى الثقافات؟ أم حوار هو ومطية للخروج من العزلة؟ أهو مقياس للمنزلة الحضارية أم وسيلة تأهيل مستمر في ألفية تميّزت بزحم التداخل الحضاري على جميع المستويات المعرفية؟، ويتصدّره تعدّد اللغات التي فرضها التواصل المعلوماتي، ممّا يثير إشكال ترجمة

المصطلحات والتي أساسا وظيفتها التنظيم والتوجيه والتسمية المتولّدة معانيها من المسار التاريخي والسياق الثقافي والسياسي والاقتصادي..

لذا نبحث في مدى نجاعة سياسة ترجمية، وحتمية تنظيم مهنة الترجمة ضمن سياسة لغوية متفتّحة وواضحة ومحدّدة في الوطن العربي.

1. الترجمة نوع من أنواع الإنتاج الفكري

إن الترجمة نوع من أنواع الإنتاج الفكري، والبحث يفضل كلمة "إنتاج" على سائر المفردات الأخرى التي كثيرا ما نسمعها تتردد على ألسنة بعض المؤلفين مثل "الوحي"، و"الإلهام"، و"الخلق"، و"الإبداع". فأمثال هذه المفردات تخفي وراءها مغالطات فادحة، وتعرقل عمل الفكر، فلا بد إذن لمن أراد أن يضع خطة محكمة في الترجمة، من أن ينطلق انطلاقة سليمة.

والترجمة، فضلا عن كونها نوعا من الإنتاج الفكري، هي كذلك نشاط قريب من الأدب وشبيه به. فالمترجم والأديب يتعامل كل واحد منها باللغة التي هي، بهذا الاعتبار، أداة إنتاج، كسائر الأدوات الأخرى المستعملة في الإنتاج الزراعي أو الصناعي. فالأديب والمترجم ليس كل منهما خلاقا، أو مبدعا، أو شخصا فوق البشر يوحي إليه، بل هو فرد من أفراد المجتمع، يعمل في ميدان معين من ميادين الحياة، هو ميدان الإنتاج الفكري. ولهذا نعدّه من عمال الثقافة.

2. خصائص النتاج الفكري:

ولكن المشكلة أن المترجم، ومثله مثل الأديب، كان، ولا يزال، مستضعفا في المجتمع العربي، لأن الناس يظنون بأنه غبر منتج. فقد درج المجتمع على أن لا قيم وزنا إلا لما هو ناتج عن الجهد العضلي.

أما الإنتاج الفكري، فليس فيه كد ولا تعب، ولا عرق جبين، لأن صاحبه قد يظل قي بيته معتكفا، فلا يدري أحدكم جاهد الفكرة المستصعبة، وكم تحايل على العبارة الدقيقة حتى أشرقت في ذهنه، وكم سهر الليالي حتى توصل إلى ما توصل إليه من إنتاج[22]

والمشكلة تتعقد إذا عرفنا بأن المترجم المتفرغ لعمله لا يستطيع أن يقوم بأود عيشه، فيضطر إلى أن يعيش في كنف غيره، كما كان الأمر في عهد الملوك والأمراء. أو قد يضطر إلى بيع قلمه، فتفرض عليه كتب معينة ليترجمها، وهو في قرار نفسه معتقد بأنها للدعاية أو للشهرة، وأنها من سقط المتاع، ومن قبيل الثرثرة التي لا تجدي نفعا.

ولعله من المفيد أن نقارن بين الإنتاج الفكري والإنتاج الصناعي لكي نفهم وضعية المترجم والكاتب على وجه العموم، فهما جيدا.

1. إن المترجم يبذل جهودا لا يقدرها المجتمع حق قدرها، فالمهندس المعماري قد "ينتج" عمارة شامخة، وهذا عمل مُحس وملموس. أما الكاتب، فقد (يتمخض) فكره عن بضع ورقات، فما أحرقها بالمقارنة مع البناية الشامخة المنيفة.

2. إن الكاتب لا ينتج شيئا ينفتح منه المجتمع في الحين ويسّد به الحاجة العاجلة خلافا لرجال الصناعة. ولذلك فهو لا للحاضر" الذي لا يقر له بالفضل"، بل للمستقبل، فلا يسعه في آخر الأمر إلا أن يلاحظ بأن " بضاعته" بضاعة مزجاة، خاصة إذا كانت الأمية متفشية، وكان الإقبال على شراء الكتب ضعيفا، فيضطر إلى " بيع الشعر في سوق الكساد" كما يقول الشاعر.

3. فضلا عن هذا فإن الكاتب لا يستطيع أن يستهلك البضاعة التي أنتجها خلاف الإسكافي الذي قد ينتفع من الأحذية التي صنعها، والمهندس المعماري قد يسكن في الدار التي بناها[23]. أما المترجم، فليس له بعد الإنتاج إلا الصبر والانتظار، لأن الإنتاج سيظل في حكم العدم إذا بقي حبرا على ورق، ولم يصادف رضى الناشر وإقبال الجمهور، وتشجيع الدولة.

4. إن الإنتاج الفكري لا يُقيّم بثمن، لأن العناصر المركبة له لا تظهر قيمتها إلا بعد مرور أجيال. إذا لا بد من دراسة الإنتاج وتمحيصه ونقده موضوعيا وأثناء ذلك يكون الكاتب قد فات ومات وأصبح نسيا منسيا. يمكن مثلا تحديد قيمة السيارة تحديدا دقيقا، لأن صانعها يعر بالضبط ما هي العناصر المركبة لهان وكم كلفت. أما في الإنتاج الفكري، فإن " التقييم" لا يكون إلا تقريبيا.كيف السبيل مثلا إلى تحديد عوامل الندرة والابتكار والسبق والإتقان؟ ولكن المأساة في كثير من البلاد العربية أن صعوبة تقييم الإنتاج الفكري كثيرا ما أفضت إلى عدم تقييمه أساسا، أي إلى إهماله والتقصير في حق صاحبه.

5. إن الإنتاج الفكري يعتمد على التنويع، فكل فكرة فريدة في نوعها، إذ توضع دائما في ثوب قشيب، فتظهر بوجه جديد. ولو طلبت من مترجم أن يعيد بعد أسبوع أو شهر أو سنة، ترجمة نص من النصوص، فسوف تكون ترجمته جديدة مخالفة لما كانت عليه في الأول.. أما الإنتاج الصناعي، فهو قائم على توحيد النموذج، أي أنه يُنسج دائما على منوال واحد: فكل نسخة، وكل بضاعة بأختها من غير زيادة ولا نقصان.

6. إن الإنتاج الفكري يساهم في تطوير التكنولوجيا، ولكن رجل الفكر لا يستفيد في عمله إلا قليلا من الوسائل التي وفرتها التكنولوجيا الحديثة. فالمترجم لا يزال إلى يومنا هذا يعتم في معاناته للتجربة

الفكرية، واصطياده للعبارة الدقيقة، لا يزال يعتمد الأساليب المضنية نفسها التي درج عليها الأولون. فهو في عمله شبيه بأصحاب الحرف التقليدية، المستلزمة لكثير من الصبر والانتباه والتضحية بالوقت والراحة. ولا أظن أن البحوث التي تجري حاليا حول الترجمة باستعمال الآلة سوف تأتي بجديد، اللهم إلا من حيث توفر بعض الوسائل المساعدة.. أما العامل في القطاع الصناعي، فهو المستفيد بالدرجة الأولى من التقدم التكنولوجي، الذي استحدث من أجله آلات توفر عليه كثيرا من الجهد والوقت.

7. إن العمل الفكري يستغرق إنجازه وقتا طويلا، وقد يستلزم أشهرا وأحيانا سنوات من الجهد المتواصل. والمشكلة أن المترجم لا يتقاضى في أغلب الأحيان أية مكافأة قبل تسلّمه للعمل الذي كلف به. وقد حدث لبعض المترجمين أن جهودهم ذهبت هباء منثورا، لأن الإدارة التي كلفتهم تغيرت وحلت محلها أخرى لا تعترف بما تعهدت به سابقتها. وبذلك يتبين أن ترجمة كتاب مغامرة كبرى لا يخوضها إلا من يحب هذه المهنة ويضحي بكل شيء في سبيلها.

إن رجل الفكر في كل هذه الحالات مهضوم الحقوق[24]. لأنه لا يجني من إنتاجه الثمرة المستحقة، ولأنه يعلم أن إنتاجه سوف يصبح بعد نصف قرن ملكا مشاعا، وسوف يصير نهبا لدور النشر تستغله كيفما تشاء من غير حسيب ولا رقيب، بدعوى أنه صار من التراث الإنساني. وكم من أديب، وكم من مترجم، لم يعرف طوال حياته سوى البؤس والشقاء.. حتى إذا مات، تحولت بضاعته الكاسدة في حياته إلى كنز لا يفنى بالنسبة إلى بعض تجار الثقافة.

3. حتمية تنظيم مهنة الترجمة:

ومن حسن الحظ أصبحت اليوم في كثير من البلدان الآخذة بأسباب التقدم مهنة محترمة يتعاطاها رجال متفرغون لهذا العمل، ومن

أسباب ازدهار الترجمة في العصر الحديث، أن المواصلات حطّمت الحواجز التي تفصل بين الأمم والشعوب، وإن الحاجة الماسة إلى التعارف والتعاون بين الدول استلزمت نشوء ما يسمى بالمهن اللغوية **.Carrières linguistiques**

إن طالب اللغات لم يكن يجد مجالا للعمل إلا في التعليم فإذا انحرف عن مهنة التعليم إلى التأليف أو الصحافة، فإن هذا الاختيار كثيرا ما يوقعه في مأزق لا يخرج منه إلا بالرجوع ثانية إلى عمله الأول. أما اليوم فما من وزارة، وما من مؤسسة، وما من مصنع من المصانع، وما من دار من دور النشر، إلا وهي في حاجة اللغوي للعمل فيها، أو كمحرر، أو صحافي، أو مترجم، أو ترجمان، أو دليل سياحي، أو باحث في مركز الوثائق، أو مسؤول عن الاتصال الخارجي والعلاقات وما إلى ذلك..

إن **هذه المهن تحتاج إلى تنظيم**، بسبب ما يسودها من فوضى، إذ ليس لها تقليد ولا قوانين تضبطها. ولذا ينبغي العمل من **أجل تأسيس اتحادات قومية للمترجمين**، كخطوة أولى لتأسيس اتحاد المترجمين العرب. وعلى هذه الاتحادات أن تنضم إلى الفيدرالية الدولية للمترجمين Φεδερατιον ιντερνατιοναλ δεσ τραδυχτευρσ وهي من المنظمات غير الحكومية المصنفة في الفئة (أ) لدى اليونسكو. ومن الجدير بالإشارة أن هذه المنظمة لم تسجل إلى يومنا هذا أي طلب للانضمام إليها من طرف البلاد العربية.

ومن **الأسباب التي حالت دون تنظيم مهنة الترجمة**:

1- إن قلّة الإطارات في البلاد العربية جعل العديد من المترجمين يهجرون المهنة ويتقلدون مناصب المسؤولية. وفي ذلك خسارة كبرى للثقافة والترجمة.

2 - لا يوجد تخصص في الترجمة، فقد يكلف المترجم ذاته بترجمة نصوص سياسية أو قانونية أو أدبية أو تقنية أو علمية، ولذلك يكون العمل دون المستوى المطلوب.

3- يميل بعض المترجمين إلى تعاطي الترجمة الفورية، وإلى العمل في المؤتمرات الدولية، لأنهم يتقاضون فيها مكافئات مغرية، ولذلك فاتهم ترجمة الكتب، وما أحوج البلاد العربية إليها، التي تواجه منافسة شديدة، بل هي مهددة بالزوال، خاصة إذا علمنا بأن البلاد العربية تجند كل ما لديها من كفاءات لغوية للعمل في المؤتمرات.

4- إن المترجم كثيرا ما يكون متعدد الخدمات: فهو في الوقت نفسه مسؤول في الإدارة ومترجم، وكاتب، وصحافي، ومحرر. ولهذا فلا يجد الوقت الكافي لتحسين مستواه وقلّما تتوفر في عمله الشروط الأربعة المطلوبة وهي: الأمانة في النقل، والدّقة في اختيار الكلمة، ووضوح التعبير، والسرعة في الإنجاز[25].

4- تحديد معالم سياسة لغوية واضحة:

قبل الحديث عن حتمية سياسة واضحة في تعلم اللغات، إنه من المفيد الإشارة إلى ما المقصود بالتفتح اللغوي؟؟

كثر الكلام، في أوساط النخبة والساسة منذ زمن ليس بالبعيد، عن الانفتاح أو التفتح، حتى غدت هذه اللفظة مبتذلة وخالية من كل معنى، إذا لم نقل أصبحت تستعمل كسهم يرمى به كل مَن يدافع عن حظوظ اللغة الوطنية، بالتحجر والانطواء على النّفس.

والواقع أن دعاة التفتح هم المروجون للأنموذج اللغوي والثقافي الفرنسي، بالنسبة للمغرب العربي، وللأنموذج اللغوي والثقافي الأمريكي، ومن خلاله اللغة الإنجليزية، بالنسبة للمشرق العربي، وذلك

بطريق غير مباشر، بدلا من أن تعدّو لغتهم الوطنية هي الأصل والمنطلق لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الأخرى.

والمؤكد أن انفتاحنا شطر الحضارات واللغات والثقافات ينبغي أن يكون مدروساً لكي يؤدّي دور المكمّل والمنمّي لثقافتنا ولغتنا، وإلاّ أصبح خطر يهدد سيادتنا وكياننا.

وهذا هو التفتح المنشود، أما الاقتصار على الأخذ من الأنموذج الفرنسي عن طريق لغته، مثلا، أو الأنموذج الأمريكي عن طريق لغته كذلك، فهذا هو التحجر والذوبان.إنه التحجر، لأن فرنسا قد تعدّ متخلفة بالنسبة لبعض الاختصاصات العلمية والتكنولوجية التي نحن في أمس الحاجة إليها في معركة الخروج من التخلّف ومجابهة العولمة. وهو الذوبان لشخصيتنا القومية والثقافية عندما نستخدم اللغة الفرنسية مثلا على أنها لغة رسمية والتقليل من قيمة اللغة الوطنية. فهذا هو التقليد والذوبان وهو يحول بيننا وبين محاولتنا للخروج من التخلف للانطلاق إلى التنمية الحقيقية.

ولا بدّ من الإشارة إلى تخوف قادة فرنسا السياسيين وبعض النخب من ظاهرة تفشي المفردات، والعبارات الأمريكية والإنجليزية إلى جسم اللغة الفرنسية. لأن استمرار هذا التيار الثقافي الحضاري يخيف قادة الرأي الفرنسيين من السقوط شيئا فشيئا تحت نية الهيمنة الحضارية والغزو الثقافي الأمريكيين. ألم يصرّح ألفرد سوفي عبر صفحات جريدة "لومند" Λε μονδε الفرنسية "إن التبعية اللغوية والثقافية (الحضارية) أشدّ إذلالا من التبعية الاقتصادية؟"[26].

إن هذا التخوف الفرنسي من مغبّة الهيمنة الثقافية والحضارية الأمريكية والإنجليزية، كان من الواجب أن يوقظ ضمير كثير من الدول النامية التي تتعامل مع فرنسا[27].

ويبدو أنه من الواجب على السياسيين والمثقفين، على السواء، في الوطن العربي أن يتنبهوا إلى خطر العولمة في شقها الثقافي، وعليهم الأخذ بمفهوم التفاعل الثقافي والحضاري الذي يكون فيه عنصر الأخذ والعطاء.

إن الأخذ البليد، دون عطاء ودون تفاعل، هو استعمار واستيلاب ثقافي وحضاري يجعل الإنسان، محروما من ثقافته ولغته وهو في بلاده. هذا الاغتراب يصح أن ينطبق عليه مفهوم الاستغلال إلاّ أن هذا "استغلال ثقافي حضاري يحرم الشعب فيه من استعمال عناصره الثقافية والحضارية الخاصة به"[28].

إن القضاء على مختلف التبعيات الاقتصادية والثقافية واللغوية وإحلال التعاون وفعاليات الأخذ والعطاء محل الهيمنة والاستغلال، هو البديل لنظام دولي فاسد مبني على الفروق بين الأمم في الميادين الاقتصادية والثقافية والحضارية. ومن هنا ندرك الحاجة الماسة إلى سياسة واضحة في تعليم اللغات.

وفي الختام فإن مشكلة الترجمة ومشكلة تدريسها ونوعية أساتذتها واجتهاد طلابها وركود سوقها عند العرب وتخلّف متخرّجيها عن الالتحاق بالسوق الدولية، كل ذلك مسألة متداخلة بعضها ببعض إذ يستحيل اختزالها في سبب واحد، وأختم بحثي بما دعا إليه الدكتور جابر عصفور، رئيس **المركز القومي للترجمة في مصر**، إلى تفعيل دور الأفراد والمؤسسات للنهوض بواقع الترجمة إذا أردنا أن نكون في مستوى التحدي العالمي. لأن الترجمة هي قاطرة التقدم، ولا يمكن الحديث عن تقدم دون وجود ترجمة. وازدهار الترجمة مرتبط بازدهار الثقافة العربية، ذلك أن الثقافة العربية تمر في أزمة خطيرة، وتعاني من مشكلات تهدد مستقبل هذه الثقافة، وقد انحدر بسبب ذلك حالها وثم فلا

نهضة لترجمة دون نهضة للثقافة وسعيٍ جمعيٍ إلى تقديرها وتقدير أصحابها.

هوامش:

1. ينظر: حسام الدين مصطفى، نقلا عن د.محمد الهادي مطلوب، آراء ومقالات في فن الترجمة والتلقي، دار الفكر والثقافة للنشر والترجمة: بيروت/ الجزائر، ط 01، 1999، ص ص35-36.

2. ينظر: عبد الواحد الأحمدي ومصطفى الأزرق، من قضايا الترجمة والتواصل الثقافي واللغوي، دار الفكر ودار الأديب، د.ت، د. ط، ص 43.

3. شاكر مطلق، نقلا عن عمر الدوادي، الترجمة أمانة أم خيانة: تقاطعات في المفاهيم، دار الحرية الفكرية للنشر والترجمة: بيروت، ط 01، 2004، ص78.

4. ينظر: ناصيف عبد الكريم، الترجمة أهميتها ودورها في تطوير الأجناس الأدبية، دار الصحف للنشر والتوزيع، طرابلس/ عمّان،د.ت، د.ط، ص53 .

5. نفسه، ص 56.

6. Walter Von Wartburg: Problèmes et méthodes de la linguistique, P. 179

7. ينظرمقال : Linguistique appliquée في:
R. Galisson et D. Caste: Dictionnaire de didactique des langues. PP: 34- 41

8. ينظر: هاينز شلافر: "في العلاقة بين الشفوي والمكتوب"، ص 68.

9. ينظر: - مدني أمين، التاريخ العربي ومصادره، ج2، ص 337.

Encyclopaedia universalis. P. 432

10. يبدو لنا أن أحسن ما كتب عن هذا الموضوع جورج مونان في:
Georges Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction. 296 pages.

11. حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، ص 299.

12. نفسه، ص 182.

13. ينظر: عبد الله العميد، نقلا عن فؤاد العون، العولمة اللغوية ومستقبل الترجمة، دار علاء الدين للنشر والتوزيع ، د.ط، د.ت، ص 69.

14. نفسه، ص 73.

15. من قضايا الترجمة والتواصل الثقافي واللغوي..، ص 118.

16. نفسه.

17 . نفسه، ص 118.

18 . نفسه، ص 119.

19. نفسه، ص 121.

20 . ينظر: إبراهيم الوادي، النخب العربية بين واقع الإعلام ومستقبل الثقافة، دار الأديب العربي: بيروت، والدار البيضاء، ط02، 2001، ص21.

21 . ينظر: العولمة اللغوية ومستقبل الترجمة..، ص 98.

22 . ينظر: حنفي بن عيسى،" من أجل نظرية في الإنتاج "، مجلة الثقافة، ع 12، يناير 1973.

23. ينظر:

J.P Sartre : qu'est-ce que la littérature, p : 52 et 53, Paris 1948

24 . ينظر:
- أحمد عبد الستار مالك: ثورة الاتصال ودنيا التكنولوجيا، مؤسسة غريب: القاهرة، د.ت، د.ط، 66.

- أحمد وادو البرادي، واقع الثقافة العربية في مواجهة الثورة التكنولوجيا، دار الثقافة :بيروت، ط 01، 1987، ص

- مصطفى أحمد الفارسي، "البلاد العربية وحقوق التأليف"، مجلة الآداب:بيروت، ع 01، 1982.

25 . هذا الاضطراب، قد أشار إليه الدكتور حنفي بن عيسى، رحمه الله، في البحث الذي أعدّه لندوة المترجمين التي نظمها اتحاد المترجمين البلغاريين، بالتعاون مع اليونسكو والفيدرالية الدولية للمترجمين (صوفيا 14 إلى 16 أكتوبر 1979) وعنوان البحث:
La situation des traducteurs dans les pays en voie de développement

26. محمود عبد المولى، مقدّمات وأبحاث تتناول علم الاجتماع والايدولوجيا والبحث العلمي والتاريخ واللغة والتراث في الوطن العربي، الدار العربية للكتاب، 1982، ص 158.

27 . حمود الذاودي، "قضية الغزو الثقافي والحضاري" ، مجلة الفكر، عدد 8، مايو 1977، ص63.

28 . نفسه : ص 68.